# مسيرة البطل وأبعادها في ثلاثية سهيل ادريس*

سهيل شملي

## المرحلة الأولى: من الخضوع إلى التمرّد:

تشغل هذه المرحلة الأولى من مسيرة البطل، الرواية الأولى من الثلاثية: «الخندق الغميق» يبدأ فيها البطل منساقاً إلى الخضوع والطاعة، منقاداً انقياداً كاملاً لما غرسه فيه أبوه، وبيئته وينتهي منها متمرداً، كافراً بهذا الخضوع، مؤمناً بصوت الحياة الذي يناديه من أعماق الذات.

وقد تبدو الأطوار التي مرّ بها البطل جليّة واضحة ضمن التخطيط، رغم تداخلها ضمن الأثر، إلّا أن هذا الوضوح يعود أساساً إلى النموّ البطيء والطبيعي الذي عرفته شخصيّة البطل.

## الطور الأوّل: الخضوع والشعور بالواجب

يطل علينا البطل «سامي» من بيت في حيّ «الخندق الغميق» ببيروت، بيت تحكمه السلطة الأبويّة، ملؤه الجوّ الديني، يقيم فيه الأبُ المشتغل بالتجارة، كل شهر، سهرة دينيّة يجتمع فيها المشايخ للذكر «لتزداد تجارته عمراناً، ثم لكونه هو أيضاً شيخاً»[1] وبنوع من الاندفاع يندمج «سامي» داخل هذا الجوّ، وبشيء من الحماسة المفاجئة يقرّر أن يدخل «المعهد الديني» ويقفو المسار الذي سبق أن انتهجه والده، لـ «قد قدّر الله عليه، وكتب على جبينه، أن يكون شيخاً مثل أبيه»[2] فيقبل عليه قائلاً: «أبي أرجوك... أرجوك يا أبي أريد أن أصبح شيخاً»[3] ولكن هذا الاقبال يبدو محاطاً بالغموض والضبابيّة. فما هي دواعي انخراط «سامي» في سلك الشيوخ؟

بطلنا في هذا الطور طفل صغير له كلّ السّمات التي تميّز الطفولة ومنها خاصّة، الارتباط بالأسرة والطّاعة والبراءة والتوق إلى الاستجابة لرغبات الحواس أي مبدأ حبّ اللذة[1].

إنّ أول ما أغرى البطل بالانضمام إلى المجلس الديني الذي كان يقيمه الأب، هو نوع من حبّ الانتشاء الحسّي الطفولي اتخذ عند «سامي» مظاهر عدّة أوّلها النهم. لقد كان «سامي» يرقب الجماعة من بعيد أثناء أكلها وقلّما يصيب من هذا الأكل ما يشبع نهمه الطفولي فاغتاظ لذلك أشد الغيظ وصار يندسُّ بين الجماعة و «يتربع بينهم على البساط فيأكل ما طاب له أن يأكل»[2] وَمَا لبث أن صار ينتظر بفارغ الصبر تلك السهرات الدينيّة التي دخلها بدافع النّهم و «بدأ يأنس إلى هؤلاء النّاس الذين يتربع بينهم على البساط»[3] لأنّه وَجَد معهم نوعاً آخر من الانتشاء، وجد في حلقاتهم «جَوّا ذهبيّاً عجيباً»[4] تجاوبت معه مشاعره وأحاسيسه واستعذبته حواسّه إلى درجة وصلت حدّ المحاكاة فقد «فاجأه أبوه يوماً يترنّم ببعض كلمات من «دلائل الخيرات» كان ذلك المقرىء قد غناها في الليلة السابقة غناءً عذباً»[5] فيقبل عليه كلّ من الأب والجماعة وينمّون فيه ذاك التجاوب مستغلّين نهمه الطفولي فيطلبون منه حفظ عشر من القرآن وحفظ الأربعين حديثاً التي جمعها النووي مقابل حفل يقام على شرفه وهدايا تسند إليه. فحفظ «سامي» عشر القرآن و «راح يتلو

(*) فصل من دراسة جامعية أعدّها سهيل الشملي (كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تونس).

(1) غالي شكري: الآداب 1959 عدد 85: «العمامة تاج العرب» ص 30.

(2) الخندق الغميق. صفحة 20.

(3) نفس المصدر صفحة 18.

(1) بغير المفهوم الجنسي للّذة.

(2) الخندق الغميق صفحة 8.

(3) الخندق الغميق صفحة 8.

(4) نفس المصدر صفحة 9.

(5) نفس المصدر صفحة 9.

الأحاديث من غير أن يفهم منها حرفاً»[1] لأن ما يهمّه هو «أن ينتهي ليتناول المكافأة»[2] فحصل على مكافأتين، حصل على مُصحف وقلم مذهّبين.

وهكذا نرى أنّ الأب وجَدَ في «سامي» من المؤشرات ما يهيئه لدخول المشيخة فزكّى فيه ذلك وغمّاه.

ولكن هذا الدافع غير كاف، ففي الرواية حادثة وقعت لسامي في صباه مع شيخ كسيح ذي عكّازين كان لها بليغ الأثر على نفسيته وجعلته يُقبل على المشيخة. «ففي براءة الطفولة التي تشعر أنّ كلّ شيء ينبغي أن يكون ملكاً لها، مدّ سامي يده وأخذ علبة (حلوى) من حانوت، في غفلة من البائع وصدف أن شاهده شيخ كسيح كان يجلس في الحانوت فصاح وركض خلفه ليمسكه وانطلق الصغير يعدو في رعب شديد. وكانت النتيجة أنّ الشيخ عوقب على فظاظته مع الولد بأن سقط على وجهه وهو يسبّ ويلعن بينما اندفع سامي صارخاً يلتمس العفو والحنان من أمّه دون أن يصارحها بما فعل»[3].

قام سامي بكل هذا لأن أباه، نسي يوماً ما، أن يعطيه مصروفه («الخرجية») الذي ينفقه في شراء «ما يشتهيه من سكاكر وألعاب»[4] وقد أدرك منذ البدء، «أن يومه ذاك سيكون يوماً حزيناً بائساً»[5] لأنّه لن يرضي نهمه ولن يتمتع بالحلويات التي اعتاد أن يوفّرها له مال «الخرجيّة». هذه الحادثة جعلته طريح الفراش مدّة أيّام يعيش كوابيس مفزعة، وبعد أن شفي قرّر أن يكون شيخاً لأنّه، بنوع من الحسّ الطفولي، أدرك أنّه غير ممكن أن يشبع نهمه وينتشي بلذّات الحياة في غير إطار الأب، كما أراد، بفعل الضمير المرهف أن يكفّر عن السرقة وعن الإساءة إلى الشيخ[6] فلا ضير إذن في أن يقفو خطو أبيه وينساق إلى جلبته فيدخل المعهد الديني «وقد ألف أن يكون ولداً مطيعاً وأن يقدّس طاعة الأب ويضعها فوق كلّ شيء»[7] فإذا كانت الطاعة واجبة والبرّ واجباً، وإذا كان البرّ مرتبطاً بالعمامة، وإذا كانت قولة الأب «العمامة تاج العرب»[1] مدعاة للنشوة[2] فليعتمر بهذا التاج، وليكن الابن البارّ.

وبهذا انطوى البطل تحت لواء الأب وقيم المجتمع الأبوي وتكون «اللذّة لا القيمة، هي ما جذبه إلى الجماعة»[3] بينما استغلّ الأب مبدأ اللذة ليحفظ مبدأ القيمة. وهكذا حقق البطل لأبيه ما كان يصبو إليه، أن «يصبح ـ ابنه ـ أي الجيل الذي يليه ـ امتداداً جامداً لنفس القيم والمثليات، بمعنى أن الجيل القديم يحصّن مستقبله»[4]. نعم، حصّن «سامي» مستقبل الجيل القديم دون وعي منه وبسلبيّة طفولية متطرفة ولكن المسيرة لم تتوقف بعد.

دخل «سامي» المعهد الديني وهو على ذلك القدر من الرضوخ ولكنّه رضوخ مصحوب بأمل طفولي هو أن يحصل عل كلّ ما يريد، دخل المعهد في غمرة تلك النشوة التي وجدها في ذلك «الجوّ الذهبيّ العجيب» إلى درجة نسي معها أنّه غادر البيت، فبعد أن قضى ليلته الأولى في المعهد «استيقظ على صوت جرس كهربائي أخذته منه الدهشة، ثم ذكر أين هو»[5]، تذكر أنّه غادر البيت، ولكنّه لم يغادر ذلك الجوّ العجيب لأنه ما إن سمع صوتاً رقيقاً هادئاً يهتف في الليل الأصم «سبحان فالق الأصباح» حتى «سرت رعشة في جسمه»[6] و «ذكر صوت أبيه حين كان يرتفع عند الفجر بهذا الهتاف»[7]، ولأنّه لم يفتقد بعد ما يشبع نهمه فقد «ألفى نفسه يقبل على طعام الفطور ذلك الصباح إقبالاً عظيماً»[8] وإذا كان هذا الطعام غير كاف فالأب موجود ليقدّم له الصرّة التي تحوي ما تشتهيه نفسه من فاكهة وحلوى.

مَا زَال سامي يعيش هذا الحلم ـ الواقع وما زال يرغب في أن تعتلي العمامة رأسه، بل ويستعجل ذلك، وكم كانت فرحته كبيرة حين أكّد له أبوه أنّه سيلبس الجبة ويعتمر بالعمامة، ولن يتأخّر عن رفقائه فـ «حين أراح رأسه على الوسادة تلك الليلة، ابتسم وهو يذكر قول أبيه المأثور: العمامة تاج العرب»[9]. ورغم فرحته وابتسامته لارتداء الجبّة والعمامة بدأت رؤية سامي تتوضح «لقد أحسّ إحساساً أخذ يتوضح شيئاً فشيئاً بأن عليه أن يعتمد على نفسه منذ الآن»[10] «وما دام قد قرّر أن يكون شيخاً، وأخذ ذلك على نفسه

(1) الخندق الغميق. صفحة 10.
(2) نفس المصدر صفحة 9.
(3) نازك الملائكة: الآداب 1960 العدد 3. ص 15.
(4) الخندق الغميق صفحة 12.
(5) الخندق الغميق صفحة 14.
(6) حلّل جورج طرابيشي (عقدة أوديب في الرواية العربية) حادثة الشيخ تحليلاً آخر. يقول صفحة 285: «ولا يشق علينا أن نتصوّر الأوّلية التي قادت الفتى إلى الخضوع لأبيه إلى حدّ التماهي معه ومحاكاته حتى في ردائه الديني. فقد دار في وهم الفتى، ولا بدّ، أن غياب والده يُبيح له أن يمدّ يده إلى لذّة محرّمة ولكن مفاجأته العظيمة كانت اكتشافه أن والده حتى في غيابه حاضر» (في صورة الشيخ الكسيح).
ولابراهيم السعافين (تطوّر الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام) رأي آخر حول نفس الحادثة فلا يرى «مسوغاً نفسياً مقبولاً للربط بين خوف سامي من الشيخ الوقور الذي كان يبيع الألعاب (لم يكن الشيخ بائع ألعاب ولا هو صاحب الدكان) وبين رغبته في أن يصبح شيخاً» صفحة 455.
(7) نازك الملائكة. الآداب 1960 العدد 3. ص 15.

(1) الخندق الغميق صفحة 20.
(2) نفس المصدر صفحة 20.
(3) جورج طرابيشي: عقدة أوديب في الرواية العربية صفحة 280.
(4) غالي شكري ـ الآداب 1959 العدد 10. ص 31.
(5) الخندق الغميق صفحة 20.
(6) نفس المصدر صفحة 20.
(7) نفس المصدر صفحة 21.
(8) نفس المصدر صفحة 22.
(9) نفس المصدر صفحة 25.
(10) نفس المصدر صفحة 22.

فلا بدّ له أن يكون شيخاً كاملاً وأن يطيع القانون»[1] إذن، بدأ سامي يشعر بثقل «الواجب» فعليه أن يستيقظ في الصباح الباكر ليصليّ صلاة الفجر ويحفظ القرآن ويقبل على أساتذته ليدرّسوه مواد الدين على اختلافها.

ولكن شعور «الواجب» ازداد حدّة بعد أن أرتدى سامي الجبة والعمامة فلم يعد يحتم عليه «الواجب» طاعة الأب فقط بل صار يحتم عليه طاعة النظام واحترام الجبّة والعمامة وما يحويانه من قيم ومثل لأنّ من لا يحترمهما حسابه عسير، أعسر من حساب رفيقه الذي ضحك منه بعد أن لبسهما فتقدم إليه ناظر المعهد وصفعه على خدّه قائلاً: «إخرس يا قليل الأدب ! احترم الجبّة والعمامة»[2].

غادر «الشيخ سامي» المعهد أوّل مرّة مرتدياً زيهُ الديني محاصراً بفكرة «وهي أنه ينبغي أن يكون «رصيناً» كما تقتضي العمامة التي يلبسها، وتتطلب هذه الرصانة أن يسير ببطء واتزان مع أن المطر كان ينهمر ويحتم عليه أن يركض تحاشياً للبلل. وعندما يوازن سامي بين أن يبتلّ، وأن يخون رصانة عمامته، يفضّل البلل ويواصل السير ببطء محتملاً إزعاج المطر في صمت.

وعندما يمرّ الترام المزدحم ويفكر سامي في أن يأخذه إلى المنزل، يتذكر الرصانة التي تمنعه من أن يركض ويتعلّق بالترام، فيتركه يفوته»[3] وعندما يصل البيت مبتلّ الوجه تستقبله الأم سائلة: «ولكن ما هذه الدموع على عينيك ووجنتيك؟ أنت تبكي؟ لماذا يا حبيبي؟ أتبكي لأنك أصبحت شيخاً»[4] وفجأة يتدخل الأب مؤنّباً الأمّ ليقرّ فوراً أنها قطرات مطر فيقول: «لماذا لا تفتحين عينيك جيداً لتري أن هذا من ماء المطر وليس من الدموع؟ صدق النبي الكريم: النساء ناقصات عقل ودين»[5] وأمام هذا الجدل وهذا الخلاف يبقى سامي صامتاً صمتاً عجيباً ولكنّه صمت معبّر أعمق التعبير مضمونه «أن سامي إنما يسكت ولا يتكلم لأنّه لا يدري فعلاً ما الحقيقة»[6] لقد تعطلت مداركة وأحاسيسه وتملّكه شعور «الواجب» إلى حدّ فقد فيه حرية الشعور أو امتنع فيه عن الشعور «ولعله يشعر براحة عندما يقدّم له أبوه تحليلاً بأنّ هذه قطرات مطر لا دموع وهو يحبّ أن يصدّق ذلك لينتهي قلقه»[7] وليشعر أنّه لم يخلّ بالواجب، ولكنّه يشكل في ذلك «فلم يدر هو نفسه: هل كان يمسح قطرات من المطر سقطت على وجنتيه أم دموعاً سالت من عينيه»[1] لقد بدأ الشعور بالتناقض والصراع في نفسية «سامي» وإن لم يشخصه، التناقض قائم الذات ولكن «سامي» لا يصرّح به لأنه لا يريد أن يخل بالواجب، بل هو يحرص على أن يكون مثالياً في أدائه «فإذا كان شيخاً فهو يجب أن يكون شيخاً كاملاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وما دامت الرصانة هي أعلى صفات الشيوخ فإنها تصبح بالنسبة إلى «سامي» قانوناً»[2] وهذا ما يفسر صلابته ورباطة جأشه في تقبّل المضايقات، فنحن نراه وقد لحقت به مجموعة من صبية الحيّ هاتفة «بنغم واحِدٍ: شيخ صغير... شيخ صغير»[3] يمتنع عن اللّحاق بهم وردّهم عن صنيعهم. لماذا؟ لأنّه لا يليق بشيخ رصين مثله أن يقوم بهذه الأعمال. فيمضي في مثاليته ويتعفّف عن النّظر إلى امرأة تناديه من شرفه منزلها لأنّه «لا يليق بشيخ أن ينظر إلى النّساء»[4]، لقد أصبح سامي محلّ فرجة وتهكّم وسخرية وربّما شفقة ولكنّه يمضي على ذلك النّسق رغم ما يشعر به من قصور أمام كلّ هؤلاء ورغم ما يحسّ به من حاجة إلى الحماية.

يتحمّل «سامي» ما يتجاوز طاقته وسنّه إلى درجة تثير الحيرة والتساؤل. ولكن هذه هي طبيعته، ما دام قد اختار أن يكون شيخاً فليطع القانون وليفنّد ما قاله له المدرّس: «أنت منحوس.... ستكون شيخاً منحوساً»[5] وليحارب الواقع بمثاليته بل عليه أن يكبت طموحات سامي الإنسان ليحافظ على سامي المثالي الذي يعطي الطاعة والواجب حقهما، وإن كان يعلم أنّه «سيعيش بعد الآن وحيداً»[6] وأنّ «دائرة محيطه تضيق حتّى لا تتعدى أربعة جدران غرفته»[7] وأن الجبّة والعمامة خسّراه أصدقاءه وأشعراه بانكماش إخوته عنه. رغم كلّ هذا يمضي سامي في أداء الواجب والصراع قائم في داخله بين المثالية والانسانية، بين «الواجب» و «الحياة»، يمضي وهو يشعر بالضيق والقلق ولكنّه لا يجرؤ على تشخيصهما فيهرب من دنيا الناس ليخلق لنفسه عالماً خاصاً به فأقبل على المطالعة و «أيقن بأنّ الكتاب والقلم سيكونان وَحْدَهما، في عالمه المغلق، النافذتين المفتوحتين على الدنيا»[8].

## الطور الثاني: التمرّد الانفعالي

من داخل ذلك الاطار الضيّق الذي اختاره لنفسه ظلّ سامي

(1) نازك الملائكة. الآداب 1960 العدد 3. ص 74.
(2) الخندق الغميق صفحة 29.
(3) نازك الملائكة ـ الآداب 1960 ـ العدد 3 ـ ص 73.
(4) الخندق الغميق صفحة 30.
(5) نفس المصدر صفحة 30.
(6) نازك الملائكة ـ الآداب 1960 ـ العدد 3. ص 73.
(7) نفس المرجع. ص 73.

(1) الخندق الغميق صفحة 31.
(2) نازك الملائكة. الآداب 1960 العدد 3. ص 74.
(3) الخندق الغميق صفحة 37.
(4) نفس المصدر صفحة 38.
(5) نفس المصدر صفحة 28.
(6) نفس المصدر صفحة 35.
(7) نفس المصدر صفحة 39.
(8) نفس المصدر صفحة 39.

يرجو الوفاء للنظام والواجب ، ولكنّه بدأ يكتشف ويعي أن هذا النظام يحوي الكثير من التضارب والتناقض تجلّى أول مظهر من مظاهره في خيبة أمله بدروس المعهد فـ «بدأ يملّ الكتاب الذي كانوا يختارونه له للدّرس. فقد كان هذا كتاباً أصفر غالب الأحيان»[1] فلا درس الفقه يروق له ولا درس المنطق ولا درس الحديث، كانت كل هذه الدروس لا تمتّ بصلة إلى واقعه وحياته. «أمّا الأدب العربي فقد كان مهزلة تدعو إلى الرّثاء على يد الشيخ «فرفور» الذي لم يكن أكثر من نجار دمشقي. ولمّا أعفى المعهد فرفوراً هذا من مهمته حلّ محلّه مدرّس سوريّ كانت دروسه على حدّ تعبير المؤلف هي التي كهربت روحه بالموهبة الأدبيّة ورسمت له طريق مستقبله»[2]، لم يتفاعل سامي مع مجمل دروس المعهد وأيقن «أنّها لم تكن قطّ قادرة على أن تروي ظمأ روحه إلى المعرفة والحياة»[3].

هذه بداية اكتشاف «سامي» للتناقض ولكن خيبة الأمل متواصلة وثقته بالنّظام ستزداد تخلخلاً، فخيبة أمله الثانية، في هذا النظام الذي يحاول جاهداً أن يؤدي واجبه نحوه بكلّ وفاء، حصلت عندما اصطدم بخيانة زملائه في المعهد فأيقن أن الآخرين أقلّ إخلاصاً منه لهذا النظام، لقد وجدهم يقبلون على كلّ محرّم بداية من التدخين ووصولاً إلى الشذوذ الجنسي. ويجره زملاؤه إلى دائرتهم وينساق إليهم لأن ذلك وافق فترة بلوغه واكتمال رجولته، تلك الفترة التي شعر فيها «أنّه خلّف عهد الطفولة والحداثة»[4] وامتلك شيئاً من الجرأة والشجاعة. فأباح لنفسه التدخين والنظر، من على سطح المعهد، إلى فتاة تقطن بيتاً يجاور المعهد على انخفاض. ويأتي اقتراح صديقه «رفيق» الذهاب إلى السينما فتبرز مثالية «سامي» من جديد ويطرح هو السؤال: «ولكن كيف نذهب إلى السينما؟ وماذا نفعل بالجبّة والعمامة»[5] كيف يمكن أن يحدث هذا وهو الذي لم يجرؤ على ذلك قبل دخول المعهد، فما بالك وقد صار شيخاً؟ فرغم ما أباحه لنفسه أوّل الأمر يعاوده شعور الوفاء للواجب ولكن « يسرع رفيق إلى شرح الخطة لسامي بينما نشعر نحن بأن جهل سامي بالوسائل الواقعية للكذب والتمرّد ليس شيئاً عارضاً وإنما هو مرتبط بشخصيته كلّها»[6] ويكذب سامي على أبيه ويزعم أنّه ذاهب ليراجع دروسه ويحفظ القرآن مع زملائه، وكأنّنا به استطاع مغالبة مثاليته، ولكنّ الحادثة لا تمرّ بسلام فيتفطنّ الأب ويصاب بخيبة أمل في ابنه ويطفو «ضمير الواجب» على السطح من جديد ـ وهذا لم يقع لزملائه الذين

(1) الخندق الغميق صفحة 40.
(2) سميرة عزام ـ الآداب 1960 العدد 4.
(3) المرجع السابق.
(4) الخندق الغميق صفحة 47.
(5) نفس المصدر صفحة 49.
(6) نازك الملائكة ـ الآداب 1960 العدد 3. ص 75.

اصطحبوه إلى السينما ـ فيأوى إلى الفراش «ويشعر بالذلّ والاحتقار لنفسه: فهو قد كذب ودخل مكاناً مشبوهاً، وأغضب أباه، وأهان جبته وعمامته»[1] وفجأة يعود «صوت الحياة» منادياً فيتذكر «عيني تلك الممثلة الزرقاوين، وشفتيها الريانتين ونهديها المسكرين... ثم رآها من جديد تقبل على الممثل فتضمه إلى صدرها ضمّة يلتصق فيها الجسدان، وتلتحم الشفاه في قبلة محمومة عاصفة، وتجمّع على نفسه في سريره واستسلم للأحلام»[2].

إذن تفتحت عينا سامي على مجموعة من التناقضات تخصّ الأولى النظام نفسه والثانية تتعلق بذاته. فهو يريد أن يكون شيخاً رصيناً كاملاً وهذا يستوجب الابتعاد عن كلّ محرّم ولكنّه دخل السينما فرأى «الحبّ حلاوة ما عرفها، والحياة انطلاقاً ما جرّبه والجمال فتنة مجلوّة وعهده بها يخفيها من القطن والحرير ألف حجاب وألف ستار، فتضاعفت فجيعته»[3] ونشأ التناقض داخل الذات، لقد «كان محروماً ولا يعرف فصار محروماً ولديه المعرفة»[4] فعليه أن يختار. ولكنّه لن يختار لأنّ ندمه لن يقف عند حد الشعور بالذلّ والاحتقار اللذين أحسّ بهما قبيل النوم وإنّما يمضي في اليوم التالي فيشي ـ من حيث لا يدري ـ برفقائه حين يستدعيه المدير ويستجوبه، لم يحتمل سامي أن يكذب ويخون النظام وتطرح مجموعة من الأسئلة نفسها على سامي إنطلاقاً من أخلاقيته: أتراه قد خان أصدقاءه بهذا الاعتراف؟ ولكن هؤلاء هم نفسهم خونة، فخيانة الرفقاء أهون من خيانة النظام والمجتمع وخيانة الذات التي اختارت ـ ولو دون وعي ـ أن تدخل المشيخة وتلتزم بالقوانين التي يفرضها المجتمع على كلّ شيخ.

وأمام هذا الصراع الداخلي النابع من تطلع سامي إلى عالم جديد في غير الإطار الذي يبيحه المجتمع التقليدي، ووفائه لهذا المجتمع، اختار سامي مرّة أخرى أن يخلق لنفسه مناخاً مناسباً وجوّاً ملائماً يخفّف من حدّة هذا الصّراع. اختار سامي المعرفة والثقافة باختياره صديقاً جديداً يكبره سنّاً هو «عزيز» طالب ينشر نتاجه المترجم في مجلة مصريّة ويدفع سامي إلى التضلّع بالفرنسية. كأنّ سامي وجد في «عزيز» نموذجاً معتدلاً يجمع بثقافته بين الحداثة والأصالة، بين الجديد والتقليدي كما وجد فيه صديقاً فريداً يحتلّ موضعاً وسطاً بين نموذجين من الطلبة، وجد فيه خلاً وسطاً بين «زهير» الزاهد في حياة النّاس، المقلّ في الطعام محاربة للشهوة و «عبد الكريم» الشّره الذي يشكو شذوذاً جنسياً وقد انتهى كلاهما إلى مشتشفى الأمراض العقلية.

(1) الخندق الغميق صفحة 52.
(2) نفس المصدر صفحة 52.
(3) محي الدين صبحي ـ الآداب 1958 العدد 9 - 10 «جيل القلق والمأساة» ص 30.
(4) المرجع السابق ص 30.

لقد جمع «الأدب» بين «سامي» و «عزيز» إلى درجة أحسّ فيها سامي «أنّه ينتمي إلى جيل صديقه وأن صديقه ينتمي إلى جيله هو»[1] وقبل أن يموت زرع «عزيز» في البطل بذرة حبّ الأدب الفرنسي والشغف بالترجمة فصار سامي يستشرف داخل هذا الجوّ، حياة أكثر انسجاماً مع ميوله، وتقيه حدّة الصراع الداخلي وتبقيه على وفائه للنّظام.

ظنّ سامي أنّه وجد الحلّ ولكنّه ليس إلاّ حلاّ ظرفياً، لأنّه سيعود إلى حياة النّاس بعد انتهاء الدّراسة في المعهد وبداية العطلة الصيفيّة. سيعود البطل إلى الواقع وسيذهب إلى قرية « «المريجات» للاصطياف مع عائلته. وهناك يلتقي بابنة الجيران «سميّا»، التقى بالمرأة التي شعر لمرآها «بأنّ صدره بدأ يخفق، وبأنّ وجنتيه تلتهبان بالدّم »[2] لم يحسّ بكلّ هذا تحرّجاً وخوفاً من أن يخون «الرصانة» التي تقتضيها الجبّة بل حبّاً وعشقاً.

عرف سامي الحبّ والمرأة ولكن كيف السبيل إلى ذلك مع الجبّة والعمامة؟ وعاوده القلق والسؤال «ما عساها تقول عنّي وأنا بالجبة والعمامة؟ وأصبح كلّ همة أن يعرف رأي سميا به، شيخاً»[3].

إذن ذهب ما اصطنعه سامي من العزم للاضطلاع بالواجب وهوت المعرفة والثقافة ليحلّ محلّها الحبّ والمرأة، تعطل الفكر وانشغل القلب، ولم يعد سامي قادراً على التفكير والعمل. فبعد أن التقى بها أوّل مرّة في الغابة لم يعد قادراً على الترجمة «ومضت ساعتان لم يترجم فيهما إلاّ بضعة أسطر»[4] ومن منطلق المراهقة ظنّ سامي أنّ الأمور ستجري حسب الطبيعة وبكلّ سهولة ولكنّه يصطدم بالواقع وتذكره «سميا» بالمجتمع والنظام والقيم فترفض مصاحبته لها قائلة «أرجوك... لا تذهب معي.... أنت شيخ»[5]. ولمّا كان المنبّه أو صوت الضمير غير صادر من ذات سامي، ومن قناعاته مثلما حدث ذلك في جملة المضايقات التي تعرّض إليها في البداية، أحسّ نحو الجبّة والعمامة « وللمرّة الأولى منذ ارتداهما، أحسّ لهما بالكره والنفور»[6] وصار حريصاً على خلعهما قبل أن يتجه إلى المنزل دون أن يدخل في صدام مع الأب، وحاول أن يختار حلاّ وسطاً يعفيه من هذا الصدام ويحافظ به على هذا الحبّ فيصرّح لسميا «إنني شيخ «مودرن»[7] فتتطور العلاقة بينهما ويزول خوف سُميّا من سامي. وبفعل تلك العصا السحرية «الحبّ» انطلقت نفسيّة البطل المنكمشة «وعاد إلى كتابه، فأخذ يترجم بآندفاع وهو يشعر أن حبّه يشتد «لمولن الكبير» هذا الذي استمعت إلى قصته سميّا وأحبّته»[1] ولكن لم يكتب لهذا الحبّ أن يبقى في السرّ، فيكشف الأب عنه النقاب ويذكّر ابنه بالرصانة التي تقتضيها الجبة والعمامة فتثور ثائرة البطل ويتحدّى أباه ويجرؤ على مجابهته: «لا لست بالوقح .... كل ما هنالك أنني أخالفك بالرّأي»[2].

تمرّد سامي على أبيه وعلى الجبهة المتكوّنة من الأخ والأم، التي انتصبت ضدّه في البيت، تمرّد على القيم المعبّأة في العمامة تمرّداً انفعالياً وأُشعلت نار المعركة بينه وبين الأب، ومثّل الحبّ الثقاب الذي أضرم نار هذا الصراع، هذا الحبّ الذي جعل سامي «مخلوقاً جديداً يملك أن يجابه ويناقش ويتحدّى»[3]. ولكنّ التمرّد الانفعالي غير كاف، فالأب لم يستسلم بعد والجبهة قائمة وسامي يحسّ «بأنّه ضعيف، ضعيف إزاء قوى كثيرة تودّ أن تقضي على حبّه»[4] فعليه أن يلتقي بحبيبته بعيداً عن الأنظار وفي غياب مجتمعه الرجعي المحافظ ولكنّه يفشل[5] وينتصر المجتمع الذي لا يعترف بغير الفرد المندمج الذي يبادله نفس القيم والمفاهيم، ولا يزكّي أيّ فرديّة تخرج عن المسؤولية الجماعية، ويعبّر الأب عن رفض المجتمع لسامي: «إن تصرفاتك تدلّ على أنك لا تصلح لأن تكون شيخاً ينذر نفسه لخدمة الدين، ويبدو لي الآن أننا أخطأنا بإدخالك المشيخة... إنّك لا تستحق هذا الشرف»[6] فيتصلب المجتمع ليضيق الخناق على سامي ويئد حبّه لسميّا وتبرز جميع أحزانه في وئام «فالبيت والمعهد[7] كلاهما في وفاق أي أن رسالتهما واحدة: تجميد القيم الهرمة بكظم أيّة انطلاقة من الصدور الجديد النامية»[8] ولكن سامي باق على العهد، وفيّ لحبّ سميّا رغم كلّ هذا الضيق الذي يُعانيه وهذا التضييق الذي يشتكي منه والغربة التي يشعر بها بين ذويه، وسيعوض كلّ هذا باللجوء إلى المعرفة، إلى الكتاب والقلم فـ «أخذ يكتب بعض الأقاصيص يستمدّ حرارة الأحداث فيها من معين قلبه ويجسّد سميّا في بطلاته... وأدرك بعد ردح من الزّمن أنّه سيكون مديناً لسميّا في انطلاقته الأدبيّة التي كان ينشدها»[9].

(1) الخندق الغميق صفحة 55.
(2) نفس المصدر صفحة 61.
(3) نفس المصدر صفحة 63.
(4) نفس المصدر صفحة 64.
(5) نفس المصدر صفحة 65.
(6) نفس المصدر صفحة 65.
(7) نفس المصدر صفحة 68.

(1) الخندق الغميق صفحة 70
(2) نفس المصدر صفحة 71.
(3) نفس المصدر صفحة 72.
(4) نفس المصدر صفحة 75.
(5) اعتلى البطل شرفة بيت سميّا في غياب العائلتين ولكن أمره فضح بأن سقط من الشرفة عند عودة عائلته.
(6) الخندق الغميق صفحة 83.
(7) إطلع ناظر المعهد على رسالة وردت لسامي من سميا فهدّده بالفصل قائلاً: «إن الطلاب هنا للدراسة، لحفظ القرآن والحديث والفقه، لا للخفة، والطيش» صفحة 89.
(8) غالي شكري ـ الآداب 1959 العدد 10 ـ ص 31.
(9) الخندق الغميق صفحة 91.

فالحبّ أو المرأة هي المفتاح الذي حرّر نفسيّة سامي واليد التي صقلت موهبته الأدبية، غير أن هذه الحبيبة انقطعت عن مراسلته وانقطع الخيط الذي كان يصل بينهما وبات سامي يعيش على أمل غامض فقرّر اللجوء إلى المعرفة، وأن ينشدها في غير المعهد الديني، فينفصل عن المشيخة ليتقدّم لامتحان الشهادة الثانوية الحكومية.

نجح سامي في تحقيق أمنيته وفاز بالشهادة الحكومية، لقد استطاع أن يعوّض - ولو ظرفياً - حبّه الموؤود بالمعرفة، وقرّر بعد ذلك أن ينزع الجبّة والعمامة، نزعهما دون خوف من أهل الحيّ الذين «باركوه حين ارتدى العمّة والجبّة، ووثقوا به واطمأنوا إليه، على حداثة سنّه وقلّة تجربته، بل هم عدّوه دعامة من دعائم المحافظة التي يتسمون بها»[1] انتصر سامي للحياة بل انتصرت فيه الحياة وهزم «الواجب» فشعر «بأنه ينقلب نفسه إلى طائر، يرفّ لحظة بجناحيه، ثم يحلّق في الفضاء»[2].

خلع سامي الزي الديني وكلّه قوة وإصرار على المجابهة، مجابهة الجميع حتّى الأب والأخ. لقد تقدّم سامي إلى أبيه متحدّياً معلناً تمرّده ورفضه للرّداء الديني، فمزّق العمامة بكل شراسة[3] وصرّح بموقفه أمام الجميع: «كلّا... بل سأخلعها بعد اليوم... ولن أرتديها أبداً.. لا أستطيع أن أرتدي العمّة والجبة بعد.. إنّني أختنق بهما.. أختنق.. أختنق»[4] هذه هي قمة الصراع بين البطل والأب والمجتمع عامّة صراع مكشوف يعلن فيه سامي كفره بهذه القيم التي تحويها العمامة.

وقد تبدو هذه الثورة مفاجئة غريبة. فكيف يمكن لإنسان أن ينقلب من أقصى الطاعة والخضوع والوفاء للواجب إلى أقصى التمرّد والعصيان والرّفض؟ هل هذا التمرد هو من «النوع الذي يحسّه المراهق في سنّ معينة إذا حيل بينه وبين من يحبّ فيثور ويحطم؟»[5] تمرّد سامي في هذا الطّور تمرّد انفعالي، اختزنت دوافعه في نفسه منذ أمد طويل، وأضرمت تارة شرارة حبّه سميّا فـ «الحب هو اليد التي كشفت عن بصيرة سامي الستار وجعلته يدرك أنّ له أبعاداً تضيق بها المشيخة، وأن جوهره الحق يتعارض مع القانون الصارم الذي يفرضه الزيّ الديني، ذلك أنّ الحبّ كان يتطلب من سامي إنسانيته كلها، بينما كانت المشيخة تعمل جهدها على أن تشذب هذه الانسانية وتكبتها وتقصّ أجنحتها»[1] وَمَا كان ليحصل هذا لو لم تكن طبيعة سامي طبيعة صلبة، فذلك الإنسان الذي لم يكن طالباً عادياً أو شيخاً بسيطاً مثل أغلب زملائه، ولم يستخفّ برصانة العمامة والجبّة، وقبل السخرية، وضحىّ بأصدقائه كان «ولا ريب يجمع في نفسه رعوداً وبروقاً تهيّىء لعاصفة جارفة»[2] فتلك الاستقامة، وتلك الحلول التي اختارها سامي لكتم صوت «الحياة» وإعلاء صوت «الواجب» أتاحت له أن يدرس الوضع ويمتلك نظرة مستقلة إليه «والحقيقة أن الطّاعة الحقّة أقرب أن توصل إلى التمردّ من نصف الطاعة»[3] وهذا ما يثبته الواقع الحيّ «فتلك الطباع التي لا تخون هي دائماً التي يصدر عنها التمرّد الحق، وتقابل العالم بصلابة الايمان واندفاع الارادة»[4] فتمرّد سامي كان نتيجة صراع داخلي، اختمر مدّة طويلة قد تكون المرأة زرعت بذرته وساهمت في ظهوره **ظهوراً** جليّاً، قد يكون تحفظ الأم نحو سامي بعد ارتدائه الجبّة والعمامة بذرة هذا التمرّد[5] بينما ساهمت سميّا - دون وعي منها وبفعل فترة المراهقة التي يمرّ بها البطل - في انضاج ثمره هذه البذرة. ولكن بعد تلك الثورة التي اعترت البطل وبعد أن هدأت سورة غضبه يتراجع فيحنو على الجبة والعمّة وينفجر بالبكاء ويقول بصوت لاهث متقطع: «أبي... إغفر لي يا أبي... سامحني... إنّني لم أرد أن أهين عمّتي..، لم أرد أن أهين عمّتك... ولكنّك صفعتني يا أبي.... صفعتني مرتين»[6] فما هو سرّ هذا التراجع؟ وماذا بعد هذا التمرّد الانفعالي؟ وبماذا سيواجه البطل هذا المجتمع وهذه القيم التي تمرّد عليها؟

## الطّور الثالث: التمرّد العملي أو الثوري المراهق.

تراجع البطل وكأنّه قد أدرك افتقاره إلى قيم يعوّض بها تلك القيم التي تمرّد عليها ورفضها بتمزيقه للعمامة. كأن البطل قد أيقن أنّ «القيمة لا تهزمها إلّا القيمة»[7]، ولكنه فاقد لهذه القيمة فتبينت له حدود ثورته وبدت صورة الثوري المراهق.

لقد تمرّد سامي وأعلن فرديته «وأحسّ أنّ قدره أصبح في يده، وأن عليه أن يشق طريقه بأظافره في الدّروب المجهولة»[8] فصمّم أن يلتحق بإحدى الكلّيات ليتابع دراسته المدنيّة وذلك يستلزم منه العمل من أجل دفع الأقساط التي رفض الأب أن يدفعها. فيسعى إلى العمل بصحيفة يوميّة ويشق طريقه في عالم الكتابة إلى أن تحققت

(1) الخندق الغميق صفحة 100.
(2) نفس المصدر صفحة 101.
(3) أنظر الفصل الثاني من القسم الثاني من «الخندق الغميق».
(4) الخندق الغميق صفحة 111.
(5) أحمد زين الدين - الآداب 1977 العدد 8- 9: «قراءة جديدة لرواية الخندق الغميق». ص 26.

(1) نازك الملائكة - الآداب 1960 - العدد 3. ص 77.
(2) المرجع السابق. ص 76.
(3) نفس المرجع. ص 76.
(4) نفس المرجع. ص 75.
(5) رأي جورج طرابيشي: «عقدة أوديب في الرواية العربية» صفحة 286.
(6) الخندق الغميق صفحة 111.
(7) جورج طرابيشي: عقدة أوديب في الرواية العربية صفحة 288.
(8) الخندق الغميق صفحة 115.

رغبته وأذاع قصّة عاطفية على أمواج الأثير وإذ ذاك يعاوده الحنين ويتذكر طيف الحبيبة ـ سميّا ـ تلك المرأة التي أشعلت نار الحبّ في قلبه وفجّرت تمرّده فيتساءل: «أتراها تستمع إليه؟ . . . ] وتناهى إليه صوتها، هي سميّا، بعد أن فرغ من إذاعة قصّته، حين أخبره موظف الاستوديو أنّه مطلوب على التلفون»[1] فيضرب لها موعداً فتطلّ عليه «مخلوقاً جديداً لم يكد يعرفه» [2] ويكتشف أنّها تزوجت من ابن عمّها في مصر «ودخلت المجتمع الأرستقراطي وأصبح لها فيه مركز مرموق»[3] وإذ ذاك يصاب سامي بخيبة أمل ويتأزّم الموقف بينه وبينها وبينه وبين نفسه فينسحب من أمامها لأن أمله اندثر وفقد المرأة التي كان يرى فيها حلمه وملجأه «لقد كان يحلم أبداً أن يلقاها مرّة أخرى مثل ذلك اللقاء وينفض بين ذراعيها جميع لواعجه، ويفرغ لهفته وحبّه في ضمّات محمومة وقبلات مسعورة يحرق بها شفتيه. . وشفتيها، وكلّ موضع من جسدها، ذلك الناضر الفتي الذي لم تمصره ذراع ولم تمسسه يد»[4] ولم يكن يعتقد أن الواقع سيكون بشعاً إلى هذا الحدّ. فقد كان يحمل آماله في المرأة ككل ثوري مراهق «يعاني أزمة خلق وجوده حسب تصوّره الخاصّ [ . . . ] ولا يريده أن يكون نسخه من وجود ليس من صنعه»[5] وتمثل المرأة بالنسبة إلى الثوري المراهق «رمزاً لحريته المطلقة التي يستشرف تحقيقها في المستقبل. فالمرأة كجنس مباشر، أبعد ما يكون عن تصوّر المراهق ولكنّها كرمز فإنها تنطوي على كلّ ممكنات السعادة بالنسبة إليه»[6] فهو يرى فيها رمزاً للبراءة التي ينشدها، «البراءة التي ستعمق معانيها ويتضح جوهرها كلما وعى الثوري قضيّته»[7].

إذن سميا التي اندمجت داخل المجتمع واحتلت فيه مكانة مرموقة غير صالحة لبطلنا الثوري المراهق لأن المرأة التي يتمنّاها يجب ألاّ تمت بأيّة صلة إلى الواقع الذي ثار عليه. فبطلنا خاب في حبّه لسميا وأحسّ بمرارة هذه الخيبة، مرارة جعلته يكره الطريق الذي ـ انتهجه ـ طريق سميّا ـ ويلفظ من حلقه «بصقة كبيرة على قارعة الطريق»[8] وأكثر ما يحتقره الثوري المراهق من الواقع الذي يكنّ له الضدّية هي «المرأة المكفّنة بالحجاب والمتخلّفة عن عالم الوعي والثورة، والمحتجزة وراء أسترة البيت، وخلف مفاهيمه الحرام»[9] ولذلك سيحاول أن

(1) الخندق الغميق صفحة 116.
(2) نفس المصدر صفحة 118.
(3) نفس المصدر صفحة 118.
(4) نفس المصدر صفحة 120.
(5) مطاع صفدي ـ الآداب 1959 العدد 12: «أزمة البطل المعاصر. العربي الثوري المعاصر» ص 49 - 50.
(6) نفس المرجع ص 50.
(7) نفس المرجع ص 50.
(8) الخندق الغميق صفحة 121.
(9) مطاع صفدي ـ الآداب 1959 العدد 12. ص 50..

يجد المرأة في غير سميّا، في الواقع الذي ثار عليه، سيحاول ذلك من خلال أخته وأمّه، ليخلق منهما مثل المرأة الذي كان ينتظره. سيرجع سامي إلى ممارسة الضديّة مع الواقع الذي تمرّد عليه ليصارع الأب والقيم التي يؤمن بها، سيقاومه ليخفّف من وطأة الاضطهاد الذي يمارسه على كلّ من أخته وأمّه.

عاد سامي إلى الصراع وقد انضمّ إلى حلقة صديقه «رفيق» وقد بدأت «تتوطّد أواصر صداقتهما القديمة ويستشعران لوناً جديداً من السعادة منشؤه أنهما تحرّراً معاً من ثقل الزيّ الدينيّ»[1] فصار يسمح لأخته أن تجتمع بصديقه رفيق وأن ترافقهما إلى السينما. وأباح لنفسه أن يقوم بدور الوسيط في علاقة حبّ بين أخته ورفيق ويؤكد لهدى «أنه المسؤول أمام أبيهما»[2]. لقد حلّل سامي ما كان محرّماً واكتسب المنطق الذي يمكنّه من مجادلة أبيه والقوة التي تردّ الأب عن ابنته ويصرّح بمسؤوليته أمام والده قائلاً: «إنّني لا أتولى تربية أختي، ولكن لا يسعني إلاّ أن أهتم بشؤونها فأنا أعتقد أني أنا أيضاً مسؤول عن مستقبلها»[3] ويثبت هذه المسؤولية عندما أراد أبوه حرمان أخته من التعلّم بأن لا يدفع لها الأقساط ويؤكد لأخته أنها لن تنقطع عن المدرسة، ولا يتوقف سامي عند هذا الحدّ بل يشجع هدى على نزع الحجاب[4] الذي صار بالنسبة إليه شيئاً غريباً لا يفهم لوجوده معنى»[5].

ووسط هذا الجوّ المليء بالتّحدي وأمام هذا الحلف المتكوّن من سامي وأخته وأمّه أطلق الأب صرخة تنبىء ببداية الهزيمة: «قلت لكم إنّني بتّ لا أطيق هذا الجوّ وغداً سوف أسافر إلى حلب لأقضي فيها وقتاً من الزمن، بعيداً عن هذه الحياة التي تبعث في نفسي الاشمئزاز»[6]. غادر الأب بيته حتى يتمتع بامتياز آخر من الامتيازات التي يمنحها المجتمع الأبوي»[7] ويعود ومعه سبب جديد للصراع، عاد وقد تزوج على «أم سامي» فزاد حلف سامي قوة أخرى بانضمام أخيه «فوزي».

لقد فقد الأب المنطق الذي يمكنه من اقناع سامي والحلف الذي معه بشرعية فعلته. فيصطحب ابنه سامي ليطلق زوجته الثانية وكأنه يعترف له ضمنيّاً بفوزه عليه وانتصار الجيل الجديد على الجيل القديم. ولكن الأب مستمر في عناده، لا يريد الاعتراف بالهزيمة، هذه الهزيمة التي برزت بوادرها مع فقدان منطق الجدل وتجلّت

(1) الخندق الغميق صفحة 123.
(2) الخندق الغميق صفحة 124.
(3) نفس المصدر صفحة 132.
(4) راجع نفس المصدر صفحة 165.
(5) نفس المصدر صفحة 128.
(6) نفس المصدر صفحة 134.
(7) جورج طرابيشي: عقدة أوديب في الرواية العربية صفحة 199.

بفقدان القوّة الجسدية، أي المرض والموت.

هكذا إذن انتصر سامي للمرأة ـ للأخت والأم ـ لأنّه خاب في تجربته معها وقد طرح على نفسه سؤالاً يعرف الاجابة عنه: «أتكون تجربة حبّه الفاشل هي التي زودته بمثل هذه الحكمة؟»[1] نعم، هذه الخيبة جعلته يصارع الأب ويهزمه ولكنّها هزيمة جزئية لأنّ سامي، رغم مصارعته لأبيه وتغلّبه عليه، بقي يكنّ له نوعاً من الحبّ، واحتفظ، وهو في غمرة الصراع بقيمة من القيم التي يؤمن بها الأبّ. فلم يكن يرى نهاية لعلاقة رفيق وهدى غير الزواج ويصرّح لها بذلك «يريدها أن تنتهي نهاية شريفة»[2] فقيمة الشرف بقيت متأصلة في ضمير البطل وبقاؤها في غمرة الصراع دلالة على أنه قاوم الأب باندفاع كبير دون أن يحدّد لنفسه القيم التي يعوّض بها القيم السائدة في المجتمع. قاوم سامي بثورية مراهقة لأنّه أصيب بالإحباط مع المرأة التي يتمناها. فالانتصار الذي حققه للمرأة داخل أسرته التي «كانت مجمع نوازع مختلفة، ورغبات متناقضة وتوق إلى نور، وتشبث بالظلام»[3] لم يكن ليحقق له مناه ويوضح له رؤيته لأنه بقي، على كلّ حال، ثورياً مراهقاً تمثل المرأة رمزاً لحريّته المطلقة وهذه المرأة لا يمكن أن تكون الأخت والأم ـ وما انتصاره لهما إلاّ عملية تعويض ظرفية.

فإذا كان سامي موقناً أن خيبته في حبّ سميّا «قد أتاحت له أن يشق لنفسه طريقاً جديداً في الحياة، مفعماً بالعزم والتصميم»[4] فهذا الطريق لا يمكن أن يكون في حيّ «الخندق الغميق» ولا في بيروت، لأنّه سبق أن جرّبه وبصق عليه وشعر فيه بالمرارة. إذن سيغير سامي الوجهة دون أن يغيّر الهدف، ستبقى المرأة التي افتقدها في «الخندق الغميق» والتي حاول أن يحقق معها ذاته هدفه الأساسي في «الحي اللاتيني» بباريس. وطريقه الجديد هو نحو الغرب، في باريس لا للدراسة فقط، كما يذكر، بل ليعيش تجربة العربي في الغرب ويحاول تحقيق الذات.

هذه هي إذن المرحلة الأولى من مسيرة البطل دخل فيها سامي المعهد الديني لأن في نفسيته وشخصيته تهيّؤاً ما قبلياً لذلك. فالأب لم يدخل ابنه هذا المعهد قسراً ومحافظة على الجيل الذي ينتمي إليه والقيم التي يتبنّاها وإنما جاء هذا التأمين نتيجة حتمية لانخراط سامي في سلك الشيوخ. فلو كان الأب على هذا القدر من الوعي والعزم لاختار الابن الأكبر (فوزي) لدخول المشيخة.

على أنّ أغلب النقاد جعلوا الصّراع في هذه المرحلة يدور بين الأب كممثل للجيل المحافظ والابن كممثل للجيل الجديد، وهكذا استحالت صورة الأب إلى «رمز» تتجسد فيه سمات جيل كامل، ولكن الأب لم يكن على قدر كبير من القوة والبطش والعناد حتى يتحول إلى نموذج لجيل كامل يقف في وجه جيل جديد. ففي الأخير لم يمنع الأب ابنه من نزع الزيّ الديني ولم يحل دون سفور ابنته. فالصراع الحقيقي إنّما هو قائم في ذات البطل، في نفسيته وذهنه وقد تبيّنا خلال هذه المرحلة صوراً لهذا الصراع. ولهذا يمكن أن نقول إنّ «سامي إنّما كان ثائراً على نفسه أكثر مما كان ثائراً على أبيه وكان التغلّب على ممانعة أبيه أيسر بكثير من التغلّب على المقاومة الداخلية التي كان يحسّها في روحه»[1].

وقد طرح بعض النقّاد مشكلة تتعلّق بحدود تمرّد سامي وثوريته. فالناقدة سميرة عزّام تتساءل «ترى ما هو الموقف الفكري الذي أخذه سامي من «الله» حين قرّر أن يخلع الجبة والعمامة؟»[2] ويقول محيي الدّين صبحي «تُرى أَلَمْ تهجس في نفسه الوساوس عن العقاب بالنّار الأبديّة والعذاب المخلّد، أو لم يسأل نفسه عن الخلد والجنان، أو ما طاف بخاطره طيف من النّدم على النعيم الذي أعده الله لعباده؟»[3].

ما يمكن أن نقوله حول تمرّد سامي هو أنّه لم يخرج عن حدود الدين ولم يطرح مشكلة واحدة تتعلق بالمثل الروحية والغيبيات ولم يحاول قط أن يحدّد نوعية العلاقة التي تربطه بالله لأنه متدين أصيل «أما ثورته على المعهد الديني فينبغي ألا تفهم على أنّها ثورة على الدين أو على المتدينين وإنما كانت ثورة على التقاليد الخانقة التي ألصقها المتزمتون بالدين»[4]. فتمرّد سامي لا يمسّ المثل والقيم الروحيّة وإنّما هو تمرّد على قيم اجتماعيّة آن لها أن تجتثّ لأنّها صارت تعوق مسيرة الانسان وتمنعه من أن يعيش حياة إنسانية. لقد كان سامي متشبثاً بالقرآن حريصاً على البقاء في حدود الدّين الاسلامي، ولا أدلّ على ذلك من مجادلته لأبيه حول تعدّد الزوجات ومجالسة المرأة للرّجل. كما بقيت علاقة البطل بالمرأة في نفس هذه الحدود. فتوقه إليها الذي تتبعنا دواعيه لم يكن قطّ لما توفّره من متعة حسيّة، فلو كان الأمر كذلك لأمكنه أن ينساق إلى جوّ الفسق والمجون والدّعارة الذي كان يعيش فيه أخوه فوزي، ولأباح لنفسه الخيانة عندما التقى بسميا بعد زواجها.

فالمرأة التي سينطلق في البحث عنها في «الحيّ اللاتيني» ستمكننا من استجلاء مواضع أخرى من شخصيته ونفسيته وبالتالي من متابعة حلقات جديدة من مسيرته.

(1) الخندق الغميق صفحة 136.
(2) الخندق الغميق 136.
(3) نفس المصدر صفحة 168.
(4) نفس المصدر صفحة 128.

(1) نازك الملائكة ـ الآداب 1960 العدد 3 ـ ص 11.
(2) الآداب ـ 1960 العدد 4.
(3) الآداب ـ 1959 العدد 3: «الخندق الغميق ومدى تعبيرها عن تمرّد الجيل» ص 14.
(4) نازك الملائكة ـ الآداب 1960 العدد 3 ـ ص 77.